

تفسير ابن كثير

* وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ

قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ

ذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده ، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة

موسى ، عليه السلام ، وهم - فيما قيل - ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية ، وقد كانوا

استعاروا من القبط حليا كثيرا ، فخرجوا به معهم ، فاشتد حنق فرعون عليهم ، فأرسل

في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه ، فركب وراءهم في أبهة عظيمة ،

وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم ، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في

سائر مملكته ، فلحقوهم وقت شروق الشمس ، (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب

موسى إنا لمدركون) [الشعراء : 61] وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر ، وأدركهم

فرعون ، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان ، وألح أصحاب موسى ، عليه السلام ، عليه في

السؤال كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول : إني أمرت أن أسلك هاهنا ، (كلا إن

معي ربي سيهدين) [الشعراء : 62] فعندما ضاق الأمر اتسع ، فأمره الله تعالى أن يضرب

البحر بعصاه ، فضربه فانفلق البحر ، (فكان كل فرق كالطود العظيم) [الشعراء : 63]
أي : كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقا ، لكل سبط واحد . وأمر الله الريح فنشفت
أرضه ، (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى) [طه : 77]
وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايك ، ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا .
وجازت بنو إسرائيل البحر ، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من
الناحية الأخرى ، وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم
وهاب وهم بالرجوع ، وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر ، واستجيب الدعوة .
وجاء جبريل ، عليه السلام ، على فرس - وديق حائل - فمر إلى جانب حصان فرعون
فحمحم إليها وتقدم جبريل فاقتحم البحر ودخله ، فاقتحم الحصان وراءه ، ولم يبق فرعون
يملك من نفسه شيئا ، فتجلد لأمرائه ، وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ،
فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم ، لا يترك أحدا منهم ، إلا ألحقه بهم .
فلما استوسقوا فيه وتكاملوا ، وهم أولهم بالخروج منه ، أمر الله القدير البحر أن يرتطم
عليهم ، فارتطم عليهم ، فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ،

وتراكت الأمواج فوق فرعون ، وغشيته سكرات الموت ، فقال وهو كذلك : (آمنت
أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فأمن حيث لا ينفعه الإيمان ،
(فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم
لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون) [غافر : 84 ،